بسم الله الرحمن الرحيم

التشبيه المنفى فى القرآن الكريم
خصائصه ودلالته

بقلم الدكتور / السيد محمد السيد سلام
المدرس بقسم البلاغة والنقد

أحمد الله رب العالمين حمد الشاكرين الذاكرين ، وأصلى وأسلم على من أوتى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا . . .

وبعـــد :

فهذه نظرات حول أسلوب ورد فى كتاب الله – عز شأنه – وفى ديوان العرب ، وترددت قلة من شواهده فى تراث البلاغيين إلا أنها غير واضحة القسمات ، ولا بينة الدلالات . . . فلم يفردوا له بالقول بابًا كما صنعوا مع غيره من الأساليب ، وإنما جاءت هذه القلة من الشواهد عرضا فى بيانهم . . .

وهو أسلوب جدير بالنظر والدراسة ؛ لأن عناصر بنائه تجرى فى باب من أبواب المعانى ، وباب من أبواب البيان ، وقد جاءت إشاراتهم إليه فى أبرز البابين نظرًا إلى الظاهر . . .

وذلك هو الأسلوب الذى أخذ صورة التشبية من ذكر للطرفين والأداة ،

ولكنه مسبوق بنفى أو ما يشبهه وهو (النهى - والاستفهام)[1] ، فأردت بذلك أن أحدد موطنه الذى يجب أن يكون فيه من الدرس البلاغى ، وأبين موقعه من المبحث الذى أشاروا إلى بعض شواهده فيه ، وهو : مبحث التشبية ، ثم أحاول الوقوف عند سمات هذا الأسلوب ، وخصائص بنائه من خلال الدراسة التحليلية لشواهده ، بعد جمعها ، وضم نظائرها . . . حتى يتسنى الوصول إلى تحرير المعنى المنفى فيها . . . وتحرير المعنى لا يكون إلا بدراسة السياق ، وعلائقه ، وعرضه فى إطار أدبى وضاء ، يكشف خصائص الألفاظ حين تتآزر ، وإيحاءات التراكيب حين تتلاقى . . .

وما قصدت بذلك تغيير منهج نهجوه ، وإنما أردت تأصيل ما تركوه فى هذا الباب .

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير

* * *

(١) ينظر شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ١/٤٦٠ .. وغيره .

التشبيه المنفى أهو تشبيه اصطلاحى ؟

النظر فى هذا الأسلوب وفى استشهادهم ببعض شواهده فى باب التشبيه يثير هذا التساؤل وبالإجابة عنه يتجلى أقرب موطن له فى الدرس البلاغى .

فمن المعهود أن التشبيه الاصطلاحى عند البلاغيين هو : إلحاق أمر بأمر معنى فى بأداة . . . ، والنفى هو نفى هذا الإلحاق ، ومن ثم نجد تناقضا بين التشبية والنفى ، وبذلك لا يدخل هذا الأسلوب فى باب التشبيه الاصطلاحى .

ويلاحظ أنهم حين حددوا صور التشبيه الاصطلاحى التى تندرج تحت تعريفه السابق ، حددوا أيضا الصور التى لا تدخل تحت هذا النوع من البيان وسموها تشبيهًا غير اصطلاحى ، ومنها : التجريد ، وأسلوب التفضيل ، والتشبيه الضمنى ، لعدم وجود صورة التشبيه الأصلية[1] ، المهم أنهم لم يذكروا منها التشبيه المنفى ، ولذا لم يندرج تحت التشبيه . ولست أدرى لم استشهدوا ببعض شواهده فى باب التشبيه دون نظر إلى وجه النفى أو النهى فيه وإلى دلالة ذلك فى الأسلوب ؟ ! فابن أبى الإصبع -مثلا - يستشهد بقول الله تعالى ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ [التوبة /١٩] فى إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار[2] . . .

---

(١) ينظر جواهر البلاغة للهاشمى ٢٧٤ ، ونظرات فى البيان د. الكردى ص٣٨ .

(٢) ينظر تحرير التحبير ١٦١ تحقيق د. حفنى شرف .

ويستشهد غيره بقوله سبحانه ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ [آل عمران /٣٦]

وقول تعالى ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ [النحل /١٧] فى باب التشبيه المقلوب تارة ، وفى غيره أخرى ، وكذلك يذكرون فى شواهد هم قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ [الشورى /١١] وهكذا[1] . . . كما سيأتى بيانه فى النفى وشبهه ، ولا يغفل أن لها فى الشعر نظائر لا يتسع المقام لدرسها ، ويكفى أن نذكر منها على سبيل المثال قول طرفة :

ولا تجعلينى كامرئ ليس هَمُّهُ كهّمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

وقوله :

خالط الناسَ بخلق واسعٍ لا تكن كلبًا على الناس تَهرّ

وقول النابغة الذبيانى :

أرَى البُنَانَةَ أقْوَتْ بَعدَ سَاكِنِها فَذَا سُدَيرٍ وأقوى منهُم أُقُرُ

إذ لا أرى مثلَ بَادِيهم بِبَاديةٍ ولا كَحاضِرهم حيًّا إذَا حَضَرُوا

قول المتنبى :

وميةُ أحسَنُ الثَّقَلَيْنِ خَدًّا وسالفةً وأحسَنُهُ قَذَا لَا

ولم أر مثلها نظرًا وعينًا ولا أمَّ الغزالِ ولا الغَزَالَا[2]

وفحصت بعض دواوين الشعر فرأيت فيها قدرًا من ذلك لكنه قليل . . .

---

(١) ينظر : التبيان للطيبى ٢١٤ ، ٣٨٥ ، مفتاح العلوم ١٩٠ ، شروح التلخيص ٤٠٩/٣ .

(٢) ينظر ديوان طرفة ص ٦٠-١٣٩ والنابغة الذبيانى ١٨٤ ، والمتنبى بشرح أبى البقاء ج١٥٧/٣ ، وديوان شعر ذى الرمة ص٤٣٦ .

والشمول : هى الخمر الباردة التى ضربتها ريح الشمال .

وهى فى القرآن والشعر كما رأينا تأخذ صورة التشبيه غير أنها مسبوقة بنفى ، ولا ينطبق عليها تعريف التشبيه كما سبق ، وقد نص فيها على الطرفين والأداة ، فلم تدخل تحت غير الاصطلاحى منه ، وليس المقصود بها إثبات أمر لأمر . . وإنما نفى أمر أو النهى عن شىء (كما سيأتى ، والاستعلاء ظاهر فيها ، سواء فى نفى الخبر كما سبق ،أو الطلب كما فى نحو قول الله - عز وجل - ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا** ﴾ ، ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا . . .** ﴾ ، ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها . . .** ﴾ إلخ .

فالجلى فيها حينئذ نفى الخبر أو طلب الكف عن الفعل . . . والمقصود منها هو بيان هذا الوجه المنفى أو المنهى عنه ، فمصب الكلام إذن على النفى ، أو النهى .

ومن ثم كان إيرادها فى علم المعانى أليق بها من علم البيان وأوْلى ؛ لأن الإثبات والنفى من خصائص الأول ، ولأن تلك الأساليب لا تنطبق عليها أغراض التشبيه من بيان الحال أو المقدار . . . إلخ .

فهذا أسلوب نفى ، وعناصر بنائه عناصر تشبيه ، وغرض هذه الدراسة تبيان خصائص هذا الأسلوب ، وأسرار التعبير به على تلك الصورة ، مع أن النص على المعنى لا على تصويره ، ولا يمنع ذلك من دراستها فى باب التشبيه باعتبار وجود عناصره ، ولكن الأحرى بها أن تكون فى باب النفى وما يشبهه لما سبق من تعليل ، وهو من أبواب المعانى ، غير أنه لما كان البلاغيون المتأخرون لم يفردوا أسلوب النفى بباب من أبواب علم المعانى ، بل تناولوا النفى فى أثناء تناولهم للأساليب الأخرى من أجل أن النفى فرع الإثبات ، فكان حديثهم عن نفى التشبيه تابعًا لحديثهم عن التشبيه فى باب البيان ، **ولعل هذا هو السر فى تعرضهم لبعض شواهده ههنا** .

وشواهد النفى جاء بعضها بـ(ليس) وبعضها بـ(همزة الإنكار)

وبعضها بـ(لا) ، أما النهى فأداته (لا) الجازمة .

ولما كان النفى هو الأصل ، ويتفرع عنه النهى والاستفهام . . . كما سبق - فإنه هو الأحرى أن نبدأ ببيان شواهده . . .

وشواهده فى القرآن الكريم على تلك الصورة عزيزة جدًا ، وجلها بـ(ليس) على خلاف ما رأينا فى الشعر - كما سبق - فى بعض شواهده .

ولا ريب أنها أصل أدوات النفى ، ومن ثم نرى النحاة يقولون (ما - ولا - ولات) المشبهات بـ(ليس) ، وصرح سيبويه بأنها أقوى من (ما) فقال « . . . كما أن (ما) لم تقو قوة (ليس) ولم تقع فى كل مواضعها[1] » .

وهى متخلصة للنفى وعامة فيه ، قال ابن هشام : « ليس » كلمة دالة على نفى الحال ، وتنفى غيره بالقرينة نحو : ليس خَلَقَ اللهِ مثله[2] » وأداة التشبيه الماثلة فى كل شواهدها هى الكاف .

وبيان إيحاء الألفاظ ودلالات التراكيب إنما يتجلى خلال السياق ، وأول ما يطالعنا من هذه الشواهد الكريمة ، قول الله تعالى حكاية عن أم مريم - عليها السلام - ﴿ **فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ [آل عمران /٣٦] .

فهى لم تنطق بهذا الحكم ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ - على القول بأنه من كلامها[3] - قبل أن ترى ما وهب الله لها ، فلما رأته نطقت بذلك

---

(١) الكتاب ١/٢٢ ت/ عبد السلام هارون - دار الكتب العلمية ١٩٨٨م .

(٢) مغنى اللبيب ١/٢٩٣ ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد - صبيح .

(٣) هذا القول الكريم مختلف فيه تبعا للقراءات فى (وضعت) وسيأتى بيانه خلال السياق .

تعظيما لعطاء الله سبحانه . . . ، وإن كانت ترجو غير ذلك ، ولكنها فوضت علم أفضليته لله سبحانه حين قالت ﴿ **رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** ﴾ أى العليم بما هو خير ؛ لأنها كانت ترجوه ذكرًا حتى تهبه لخدمة السدانة . . . فلما أعطاها ما كان فى علمه أفضل ، ومن ستكون هى وابنها آية للعالمين بعد ذلك ، قالت : ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ مشيدة بما وهب الله ، أى ليس الذى كنت أرجوه كالذى وهبه الله لى . . . فعطاء الله أفضل مما كنت أظنه كذلك ، ومن ثم ردت زعمها الذى كانت تزعمه حين عبرت بـ« إنّ » فى قولها : ﴿ **رب إنى وضعتها أنثى** ﴾ ، وبيَّن الإمام عبد القاهر قيمة التعبير بـ« إن » ههنا فقال « . . . واعلم أنها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان أيها المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون . . . فتجعلك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت وتبين الخطأ الذى توهمت ، وعلى ذلك - والله أعلم - قوله تعالى حكاية عن أم مريم - رضى الله عنها - قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت[1]

ولما كانت تقصد تعظيم ما وهب الله لها كان الأرجح أن ذلك من نفى المشابهة بين ما كانت تريده وما وهبه الله - عز وجل - بيانًا لنفاسة ما وضعته ، وأنها خير من مطلق الذكر الذى سألته ، ويكون التعريف للعهد ، أى الذكر المعهود الذى كانت ترجوه لا يساوى الأنثى التى وهبها الله[2] . . .

وكأنها عندما قالت : ﴿ **رب إنى وضعتها أنثى** ﴾ لم تقصد التحسر كما هو مشهور لدى البلاغيين ، وإنما تقصد ردّ ما كانت تزعم وتغيير ما كانت

---

(١) دلائل الإعجاز ت/ أ. شاكر .

(٢) ينظر : الكشاف ٢٤٥/١ ، والبحر المحيط ٤٣٩/٢ ، وروح المعانى ١٣٥/٣ ، التحرير والتنوير ٢٣٣/٣ .

تظن وهى حفية بما وهب الله ومعظمة له بذلك القول ، ومؤكدة هذا التعظيم بقولها ﴿ **والله أعلم بما وضعت** ﴾ أى بنفاسته .

وقرئت هذه الآية بضم التاء وتسكينها ، وقراءة الضم تحقق أنه من كلام أم مريم لاتصال كلامها بما بعد ذلك ، وما قبله فى قولها ﴿ **رب إنى وضعتها أنثى** ﴾ وقولها ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ وقولها ﴿ **وإنى سميتها مريم** ﴾ وقولها ﴿ **وإنى أعيذها بك** . . . ﴾ فكله من كلامها ، فحمل وسط الكلام على أوله وعلى آخره ، وذلك حسن فى المطابقة ، والمجانسة ، . . . وكأنها أرادت بذلك أن تعظم الله سبحانه وتنزهه عن أن يخفى عليه شىء ، فهى لم تخبر وإنما تعظم لأن ذلك أمر مقرر فى نفسها ، ونفوس المؤمنين .

واحتج من قرأ بتسكين التاء على أنه من كلام الله جل ذكره ، أى أن الله أعلمنا عن طريق التثبت لنا ، ولو كان من قولها لكان وجه الكلام (وأنت أعلم بما وضعت) لأنها نادته فى قولها ﴿ **رب إنى وضعتها أنثى**[1] ﴾ .

أشرت إلى ذلك لارتباطه بموطن الشاهد ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ وعلى بيانهم هذا تترجح قراءة ضم التاء ﴿ **وضعتُ** ﴾ ويكون قوله : ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ من كلامها تبيانا للمفاضلة والتعظيم المراد من السياق كله . . .ونلحظ أنهم يحتجون بأنه لو كان من كلامها على قراءة التسكين لكان وجه الكلام (وأنت أعلم وضعتْ) ، وهذه حجة – فى نظرى – غير كافية ؛ لأنها أرادت أن تبين هيمنة الحق وعظمته ، وهيبة ما كان مستورًا فى علمه ، ولا يؤدى ذلك المراد سوى اسم الجلالة ، فهو أعظم أسماء الله مهابة وعظمة . . . ، أما (وأنت أعلم بما وضعت) فالتعبير

---

(١) ينظر كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكى ابن أبى طالب القيسى ١/٣٤٠ ت/ محيى الدين رمضان .

به فيه جفاء يناقض الخضوع لعظمة الله ، والتبجيل لعطائه . . .

وبذلك يتناسق السياق ، ويكون قولها ﴿ رب إنى وضعتها ﴾ موحيًا بمعنى الإشراق والبهجة ، وقولها ﴿ والله أعلم . . . ﴾ موحيا بمعنى التعظيم والرفعة ويكون قولها ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ نقلا من دقة العظمة الخفية إلى الجلاء والوضوح فيها ، وذاك شأن التشبيه فى بيان الأمر ووضوحه . . . ولم يكن منها أدنى تحسر ، وإنما كان منها تعظيم العطية والمعطى ، (ولكنها قدمت الذكر والمقام مقام تفضيل تلك الأنثى المعهودة لأنه كان هو الأهم فى نفسها ، وهو المرجو المأمول فهو أسبق إلى لفظ المتكلم[1]) ولأن النفى واقع عليه وهو المراد .

ويعضد ما سبق : قول الإمام الرازى « والمقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر ، كأنها قالت : الذكر مطلوبى ، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى ، وليس الذكر الذى يكون مطلوبى كالأنثى التى هى موهوبة الله ، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة فى معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه[2] » وهذا أفضل الوجوه المذكورة فى هذا البيان العالى وأقربها للسياق والكلام بذلك يكون على أصله دون قلب ، ولا يمكن أن يقال : كان مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر . . . وأن تنفى عن الكامل شبهه بالناقص ، كما ذكره ابن المنير[3] ، والبيان السابق يخالف ذلك كما أشرت ، وأيضا لأنها من قوم اصطفاهم الله على العالمين ، فلا يكون منها الغض من شأن هبة الله - عز وجل - أبدًا ، والله أعلم بمراد بيانه . . .

---

(١) ينظر : البحر المحيط ٤٣٩/٢ ، والتحرير والتنوير ٢٣٤/٣ .

(٢) التفسير الكبير ٢٩/٨ .

(٣) ينظر كتاب الانتصاف على هامش الكشاف ٤٢٦/١ .

وتدخل « ليس » أيضا على جملة التشبيه دالة على عموم النفى ، وذلك فى قول الله - تعالى ﴿ **يٰنِسَاءَ النبى لَسْتُنَّ كأحد من النساءِ إن اتقيتن فلا تخضَعْنَ بالقَول فيطمَعَ الذى فى قلبهِ مرضٌ وقلن قولا معروفا** ﴾[الأحزاب /٣٢] .

هذا بيان لتفضيل نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - على جميع نساء الأمة ولكنه جاء على طريقة الكلام هذه تحقيقا لنفى المساواة بينهن وبين غيرهن من غير تعرض للتقليل من شأن أحد ، وإنما هو إبراز لما لهن من ميزات لأنهن زوجات النبى ، وأمهات المؤمنين ، ونظير هذا الفضل ، وتلك الخصوصيات فإن الله يضاعف العذاب لمن تخالف وجه الحق منهن ، كما أنه يضاعف الأجر لمن تعمل صالحًا . . . قال تعالى ﴿ **يَانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما** » ثم يواصل السياق تلك الخصوصيات بإبراز هذا الفضل وتوضيحه بعناصر التشبيه الواقعة بعد النفى ، والتى بنى عليها معنى هذا النفى ومراده .

ومعنى هذا النفى كما يقول الزمخشرى « لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة[1] » .

ومجيئ المشبه به (أحد) بلفظ يفيد العموم أوْفى ببيان هذا المعنى ؛ لأنه يبين تفرد كل واحدة منهن بهذا الفضل واجتماعهن فيه أيضا . . ولأنه إذا جاء فى سياق النفى العام يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد ،

---

(١) الكشاف ٣/٢٥٩ .

ومـا وراءه[١] .

فهو يفيد معنى الخصوص والعموم ، أى كل واحدة منكن لها خصوصية بذلك ، وجماعتكن أفضل من جماعات النساء .

ويقول الراغب فى (أحد) المختص بالنفى « فأما المختص بالنفى فلاستغراق جنس الناطقين ، ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق[٢] » ومن ثم فالتعبير به له خصوصيات تنسجم مع المعنى المراد ، ولا تتجلى فى نظائره كلفظ فرد أو نظير أو ند . . . ونحو ذلك « لأن الواحد يفيد الانفراد فى الذات والصفة[٣] » .

وهذا يعنى التفرد الكامل فيما تميزن به . . . وبناء الكلام على نمط التشبيه يفيد بيان هذه الأفضلية ويوضحها ؛ لأن التشبيه كما يقول ابن الأثير : « يأتى تارة فى معرض المدح ، وتارة فى معرض الذم ، وتارة فى غير معرض مدح ولا ذم ، وإنما يأتى قصدًا للإبانة والإيضاح[٤] » وبناء الكلام على عناصره هنا يوضح مقصد نفى المساواة فيما تفردن به . . . ونلحظ أن هذا النفى مشروط بقوله تعالى ﴿ **إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول** ﴾ أى يتحقق نفى المساواة بالتقوى ، فيكون قيدًا داخلًا فى إبراز الخصوصية ، ومتعلقا بها . . على معنى « لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الأتقى[٥] » ، وعلى هذا فالجواب محذوف دلّ عليه سابق الكلام ، ويجوز « أن يكون متعلقًا بما بعده على معنى : إن اتقيتن فلا تخضعن . . .[٦] » .

---

(١) ينظر السابق ذاته .

(٢) المفردات (أحد) .

(٣) الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ص ١٣٢ .

(٤) المثل السائر ١٦٢/٢ تقديم وتعليق د/ أحمد الحوفى .

(٥) تفسير الرازى ٢٠٩/٢٥ .

(٦) السابق ذاته .

والأول هو الراجح لما فيه من الحض على التقوى والمداومة عليها لمن يبتغى الأفضلية ، وبه يتحقق نفى المساواة فيما تميزن به كما سبق . . . وليس هذا القيد « إن اتقيتن » سوى إلهاب وتحريض على الازدياد من التقوى والمداومة عليها ؛ لأن فعل الشرط مستعمل فى الدلالة على الدوام[1] . . . وبذلك تكون عناصر التشبيه قد أدت عملها فى بناء المعنى الواقع عليه النفى ، والآية كلها عنصر فى السياق الذى يبرز عظمة نساء النبى على نساء العالمين ، ودليل هذا : النداء الذى استهلت به هذه الآية والتى قبلها ، والتوجيهات الراشدة التى تخللت ذلك ، وفيها حض للمؤمنين على حسن الاقتداء بهن ، والامتثال لما أمرن به ، فهذه توجيهات لمن يقتدى بهن ، بدليل العموم الذى جاء فى السياق بعد ذلك ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** . . . ﴾ الآية ، ويحقق ذلك أيضًا قوله سبحانه ﴿ . . . **فلا تخضعن بالقول** . . . ﴾ حين نجعله مقطعا جديدًا من مقاطع المعنى فيتجلى به أن هذا التوجيه لنساء الأمة ، ولكن وجّه لقدوة النساء ليكون الامتثال أو الإذعان له أقوى ، وهكذا تتجلى وحدة السياق والغرض ودقة النفى حين تأتى عناصر بنائه على طريقة التشبيه فى معرض المدح . .

* * *

وقد اجتمعت « الكاف ومثل » وانصب النفى عليهما فى قول الله تعالى ﴿ **فاطر السَّمٰوات والأرض جعلَ لكم من أنفسِكُم أزوَجًا ومن الأنعَامِ أزوَجًا يَذرَؤُكُمْ فيه لَيس كمثله شيءٌ وهوَ السميعُ ال بصيرُ له مَقاليدُ السَّمَوٰاتِ والأرضِ يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ إنه بكلِ شيءٍ عليمٌ** ﴾ [الشورى /١١ -١٢]

---

(١) ينظر : روح المعانى ٥/٢٢ ، والتحرير والتنوير ٦/٢٢ - ٧ .

هذا السياق وما قبله يحقق وحدانية الحق سبحانه وتفرده بصفات القدرة والكمال ، لايماثله فى ذلك شىء . . .

واختلف العلماء فى دخول (الكاف) على (مثل) وهل مؤداهما واحد أوْلَا ، وهل الزيادة فى الأول أو فى الثانى ، والحق أن لكل منهما دلالة يحددها السياق والمقام . . ، فالكاف بعد (ليس) هنا تدل على نفى المماثلة عن ذات الله تعالى وليست مقحمة ولا صلة كما يقول بعض المفسرين ، و(مثل) بمعنى (ذات) وفرق بينهما أبو هلال العسكرى بما يوضح دلالة اجتماعهما فقال :

« الفرق بين كاف التشبيه وبين المثل : أن الشىء يشبه بالشىء من وجه واحد لا يكون مثله فى الحقيقة إلا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته ، فكأن الله تعالى لما قال : ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ أفاد أنه لا شبه له ، ولا مثل ، ولو كان قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ نفيًا أن يكون لمثله مثيل لكان قولنا : ليس كمثل زيد رجل مناقضة لأن زيدًا مثل من هو مثله ، والتشبيه بالكاف يفيد تشبيه الصفات بعضها ببعض ، وبالمثل يفيد تشبيه الذوات بعضها ببعض . . .[1] » .

ومن ثم تتجلى دلالة تركيب الكاف مع مثل ، وهى أنه - جل شأنه - منزه عن الشبيه فى الذات والصفات واجتماعهما فى نفى المماثلة بيان لعمومها ويؤكد ذلك أيضا التعبير بـ(شىء) .

وبذلك يكون للكاف دلالة لا تنجلى بغيرها وهى أصلها فى التشبيه ، و(مثل) تكون بمعنى ذات على عادة العرب فيه[2] . . .

---

(١) الفروق فى اللغة ١٤٩ .

(٢) ينظر الإكسير ١٢٤ ت د/ عبد القادر حسين .

وقد دفع العلامة الطيبى القول بزيادة الكاف ، وأثبت هذا المعنى (ذات) لمثل حين قال « وقد يظن فى نحو قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ أن الكاف صلة وليس هناك ، وإنما المراد نفى المثل على طريقة الكناية ، أى ليس شبه ذاته المستجمعة لصفات الكمال شيء ، فاستعمل مثل فيمن لامثل له ، كما استعمل فيمن له مثل ، وهذه خاصية الكناية[1] » .

فقوله « وليس هناك » بيان دقيق لرد هذا الزعم ، وسياق الكلام بعده يوضح رأى الزمخشرى ويبين فائدة الكناية التى ارتضاها حين قال : « فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كالله ش=(وبين قوله ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان متعاقبتان على معنى واحد وهو نفى المماثلة عن ذاته . . .[2] » .

ولكنه عبر بـ(مثل) لما فيها من عموم المماثلة ، ولذا لم يقل : ليس كذاته ، وقد تآزرت مع الكاف فى بيان هذا المعنى بدخول النفى عليها .

وقوله سبحانه عقب ذلك ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ دليل واضح على أن صفاته ليست كصفات خلقه ، وبذلك يتضح عموم النفى وشموله للذات والصفات ، أما القول بالزيادة هنا فى الحرف أو فى الاسم فلا قيمة له وسط هذا البيان ، وإن كنت أعلم علم اليقين أنهم لا يقصدون بالزيادة الحشو المخل بفصاحة الكلام وبلاغته ، وإنما يقصدون الزيادة التى لها معنى ، ولكنهم غالبًا يعللونها بالتأكيد ، ولا يستقيم هنالك كما قال العلامة الدكتور / محمد عبد الله دراز « . . . فإن تأكيد المماثلة ليس مقصودًا البتة ، وتأكيد النفى بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان[3] » .

---

(١) التبيان ص ٢١٤ .

(٢) الكشاف ٣/٤٦٣ .

(٣) النبأ العظيم ١٣٣ .

ويبقى من باب النفى فى هذا النوع من البيان قوله تعالى ﴿ **هَاأَنتُم هَٰؤُلَاءِ تُدعونَ لِتُنْفِقُوا فى سبيلِ اللَّهِ فمنكُم مَّن يَبخَلُ ومن يبخَلْ فإنما يبخلُ عن نفسه واللَّهُ الغنىُّ وأنتم الفقراءُ وإن تتولوا يسْتَبْدِلْ قومًا غيركُم ثم لا يكونوا أمْثالكُمْ** ﴾ [سورة محمد /٣٨] .

هذا تحذير من البخل وحض على الإنفاق وعدم التولى عما أمر الله به . . . ، وبيان قدرته تعالى على استبدالكم بمن لا يكون هذا شأنه ﴿ **ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ ، وهذه الجملة معطوفة على جواب الشرط (يستبدل[٢]) وبذلك تكون (لا) نافية ، وعبر بـ(مثل) هنا على طريق الجمع لبيان التكافؤ فى الذات ، أى من جنسكم ، ولكنهم لا يتصفون بصفتكم ، فالتولى هو المقصود بنفى المماثلة ، وهو صفة من الصفات المبغوضة . . . ، أى لا يكونوا أمثالكم فى التولى والإعراض . . . وبناء المعنى على ذلك أدق بيانا ووضوحا وأعظم زجرًا عن التولى ، وأدفع للرغبة فى الإيمان والإقبال على الطاعة . . . وعلى تلك الشاكلة من البيان نقف مع شواهد النهى ثم شواهد الاستفهام المؤدى معنى النفى على أنها شبه نفى كما مضى . . .

* * *

وشواهد النهى هذه فى كتاب الله - عز شأنه - هى أبرز تلك الشواهد التى بنيت على عناصر التشبيه ، فقد تكررت عشر مرات سبقتها الواو فى سبعة منها ، والنهى فيها كلها داخل على مادة (كون) وهى محصورة فى (تكونوا - يكونوا - تكن) وأكثرها الأولى .

وسيتضح من خلال تحليل الشواهد أن الفعل هنا مستفرغ من دلالته

---

(١) إملاء ما منّ به الرحمن ، على هامش الفتوحات الإلهية ٤/٣٣٠ .

الزمانية ، والمقصود به الكينونة الإنسانية ، التى هى بمعنى التكوين ؛ لأنها عائدة على المخاطبين ، ولأن هذه الصفات المنهى عنها تكاد تَمْثُل فى كثير من الناس فى بعض لحظات حياتهم ، ولكن النهى عن أن تبلغ مداها ، وتصير جزءًا من تكوينهم ، فيؤول أمرهم إلى ما آل إليه أمر هؤلاء الذين حادوا عن الحق . . .

وأداة التشبيه فيها جميعها هى الكاف ، وليها اسم الموصول ، وصفة المشبه به بصيغة الماضى ، ومعظم هذه الشواهد فى آيات العقيدة نحو : التفرق فى أصول الدين ، والاعتقاد الباطل ، وعدم الطاعة لله ولرسوله ، والخروج فى سبيل الله بطرًا . . . ، ونقض العهد بعد إبرامه ، ونسيان الحق والتولى عنه . . . وهكذا تجرى كلها فى إطار توجيهى فيه تحذير وترشيد . . . كما سيأتى ، وعند دراسة هذه الخصائص يتجلى الغرض من النهى وسر بنائه على عناصر التشبيه . . .

فإذا نظرنا فى نظم قول الله سبحانه وتعالى مخاطبا المؤمنين ﴿ **ولا تكونُوا كَالذينَ تفرَّقُوا واختَلَفُوا من بعدِ مَا جَاءَهُم البَيِّنَتُ وأولئكَ لَهُمْ عذابٌ عظيمٌ** ﴾ [آل عمران /١٠٥]

وجدناه جاء فى سياق توجيه المؤمنين ، وهو مسبوق بتوجيهات سديدة تحذرهم من طاعة أهل الكتاب ، وتعتب عليهم ذلك - لو فعلوه - ، وآيات الله تتلى عليهم ، وترغبهم فى الاعتصام بحبل الله ، لأنه طريق الهدى ، وتأمرهم بتقوى الله والموت على الإسلام[1] . . . . إلخ

وبعد بيان هذه المعانى السامية التى سبق فيها الأمر بالاعتصام ، والنهى عن التفرق ، وعن طاعة أهل الكتاب بعد ذلك « يمثل هذا التفرق

---

(١) تراجع الآيات من ١٠٠ - ١٠٤ من السورة .

والاختلاف فى أبشع صوره المعروفة لديهم من مطابقة أحوال اليهود[١] . . . » ، فيأتى المعنى المراد من النهى بعناصر التشبيه لما فيها من جلاء المعنى ووضوحه وجمعه فى صورة واحدة بعد طول بيان عنه . . . والذين تفرقوا واختلفوا قيل : هم اليهود والنصارى ، وقيل هم مبتدعو هذه الأمة وهم المشبهة والمجبرة والحشوية ، وقيل كالذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب – من بعد ما جاءهم – فى التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة ، وعلى هذا الوجه الأخير تكون الآية من تتمة جملة الآيات المتقدمة[٢] .

وهذا أقرب لسياق الآيات ؛ لأنها كانت تعتب على أهل الكتاب قبل ذلك وتلوم عليهم كفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله ، وتحذر المؤمنين من طاعتهم ، وهؤلاء هم الذين تفرقوا فيما جاء به الأنبياء ، وفى عداوتهم للمسلمين ، واختلفوا فى ذلك ، ويمكن أن يكون المراد تفرقوا فى أصل الدين واختلفوا فى أمور بينهم . . .

ومن هنا يترجح القول بالاختلاف بين الصفتين أى « تفرقوابالعداوة واختلفوا فى الدين ، وقيل تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه[٣] » ؛ لأنه لو اتحدت الصفتان اتحادًا كليًا لما كان العطف . . ولما كان هذا دأب كثير منهم ، جاء نهى المؤمنين عن ذلك على صورته تلك من التعبير بـ(ولا تكونوا) الذى يفيد النهى عن مزاولة هذه الصفات ، وجعلها جزءًا من تكوينهم .

فالمسلم وإن كان مفطورًا على الاختلاف المحمود المشار إليه بقوله –

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٤/٤ .

(٢) ينظر الكشاف ٤٥٣/١ وتفسير الرازى ١٨٤/٨ .

(٣) تفسير الرازى ١٨٥/٨ .

صلى الله عليه وسلم - « اختلاف أمتى رحمة[١] » فهذا نهى عن التشبه بمن كان اختلافهم فى أمور العقيدة ، وعن أن يكون هذا طبعهم . . .

والمشبه به هو الأعلى فى هذه الصفات لأنها تحققت فيه ، ولذلك عبر عن تفرقهم واختلافهم بصيغة الماضى (تفرقوا واختلفوا) ولكنه قال « من بعد ما جاءهم البينات » إشعارًا بأنه كان ينبغى عليهم الرجوع إلى الحق بعد أن جاءتهم الدلائل الواضحة ، وعبر بلفظ (البينات) دون الكتب المنزلة أو التوراة والإنجيل ؛ لبيان أنها براهين جلية ، وكثيرًا ما توصف الكتب المنزلة بذلك . . .

ويقول الراغب « وسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره نحو : هذا بيان للناس[٢] » .

ويكمن الغرض من هذا النهى إجمالًا فيما ذيلت به الآية ﴿ **وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ فهو كما قال الألوسى - « وعيد لهم وتهديد للمتشبهين بهم لأن التشبيه بالمغضوب عليه يستدعى الغضب ، ثم إن هذا الاختلاف المذموم محمول - كما قيل - على الاختلاف فى الأصول دون الفروع ، ويؤخذ هذا التخصيص من التشبيه[٣] . . . »

هذا هو الغرض من النهى ، أما المراد من بناء الكلام على عناصر التشبيه دون الاكتفاء بما سبق فى قوله سبحانه « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فهو إبراز هذا المعنى المنهى عنه فى صورة (واضحة جلية ينزجر

---

(١) ينظر كنز العمال ١٣٦/١٠ . وقال المناوى فى فيض القدير ٢٠٩/١ : لم أقف له على سند صحيح ، وقال الحافظ العراقى : سنده ضعيف .

(٢) المفردات (بَيَنَ) .

(٣) روح المعانى ٢٣/٤ .

بها كل قوم فى كل زمان ومكان . . . وهكذا ينتقل السياق من مرحلة لأخرى حتى يفيض بهذه المقاصد التى تُنَدِّدُ بقومٍ وتكشف أمرهم ، وترشد آخرين وتحذرهم من التشبه بهم ، وتبين لهم أنهم أرفع من مماثلتهم . . . .

وفى السورة ذاتها ترشيد آخر للمؤمنين على تلك الشاكلة من البيان ، يقوى عزمهم على الجهاد فى سبيل الله ويعضد ثقتهم بأن الأمور كلها بيد الله ، ويأتى ذلك بعد حديث عن المنافقين . . . .

قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنوُا لا تكوُنُوا كالذينَ كفروُا وقالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَربوا فى الأرضِ او كانُوا غُزَّىً لو كَانُوا عندنا مَا مَاتُوا وَمَاقُتِلوا ليجعلَ اللَّهُ ذلكَ حسرةً فى قلوبِهم واللَّهُ يحِى ويميتُ واللَّهُ بما تعلمونَ بصيرٌ** ﴾[آل عمران /١٥٦]

يفيض هذا البيان الدقيق بأمور منها : -

١ - غفلة الكافرين أو المنافقين عن الحق وبيان ضلالهم وسفاهة عقولهم .

٢ - تحذير المؤمنين من مماثلتهم حتى لا يلحقهم ما أصاب هؤلاء . . .

ولما كان التعبير بالكفر فيه عموم يتناول كل فعل مذموم ، ويستعمل فى جحود النعمة وفى ستر الحق وإخفائه ويقال لمن أظهر الكفر وإن لم يعتقده[1] . . . . لما كان ذلك كذلك فإنه عبر عن المنافقين بهذه الصفة ، وهؤلاء هم الذين أخبر الحق - سبحانه وتعالى - عن شأنهم قبل هذه الآية بقوله : ﴿ **... وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ...** ﴾ .

---

(١) ينظر المفردات (كفر) .

تلك طائفة همهم مقصور على أنفسهم لا يريدون الدفاع عن الحق ، ولا يرغبون فى الخروج إلى القتال ، والسر فى ذلك سوء ظنهم بالحق واستنكارهم أن يكون لهم نصيب من النصر أو الفتح ، وبذلك تتبين غفلتهم وجحودهم . . . ومن ثم جاء هذا النهى تحذيرًا للمؤمنين من مماثلتهم فى كفرهم وسوء اعتقادهم . . . ودلالة النهى تتجلى فى طلب الكف على جهة الاستعلاء ، وفى هذا ذم للمشبه بهم وتنفيص لهم ؛ لأن الكفر وفساد الاعتقاد تأصل فيهم ، فيجب على المؤمنين أن يربأوا بأنفسهم عن مماثلتهم ، والكاف فى جل هذه الشواهد التى تجرى فى إطار النهى بمعنى (مثل) لأن النهى يجرى فى أمور معنوية والشبه يستعمل فيما يشاهد ، فيقال : السواد شبه السواد[1] . . . ولكنه لم يعبر بـ(مثل) هنا لأن النهى منصب على صفاتهم وأحوالهم دون ذواتهم . . . ولذا قال أبو حيان لما تقدم من قول المنافقين : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا** ﴾ وأخبر الله عنهم أنهم قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، وكان قولًا باطلا واعتقادًا فاسدًا نهى تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى هذه المقالة الفاسدة والاعتقاد السيئ[2] » .

وهذا هو الوجه الذى يجب ألا يلتقى فيه الطرفان ، وهذه المعانى ونظائرها تبرز فى معرض السياق باختصار . . .

وجرى التعبير كله فى جانب المشبه به بصيغة الماضى : كفروا ، وقالوا ، لأن هذا القول لازم الحصول منهم ، فقد قالوا قبل ذلك ما يدل عليه ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا** ﴾ والشىء إذا كان لازم الحصول يعبر عنه بما يجعله كالكائن الواقع .

وقيل إن المقصود بالتعبير بالماضى هنا (قالوا) الإخبار عن جدهم

---

(١) ينظر الفروق فى اللغة ١٤٨ .

(٢) البحر المحيط ٩٢/٣ .

واجتهادهم فى تقرير هذه الشبهة ، **أما قوله (إذا ضربوا . . .) فإنما هو حكاية للحال الماضية ، وجاء بـ(إذا) الدالة على المستقبل استحضارًا لتلك الصورة حتى لا يتشبه أحد من المؤمنين بهؤلاء أبدًا**[١] .

وقيل : « إن (إذا) بمنزلة (إنْ) ، (إنْ) تنقل الفعل الماضى إلى معنى المستقبل »[٢] ، أما قوله تعالى ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم** ﴾ فالأقرب فيه أن تكون اللام للعاقبة ، ومتعلقة بـ(قالوا) وداخلة فى حيز الصلة ومن جملة المشبه به ، أى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ؛ لأنه يؤدى إلى الحسرة والندامة[٣] . . . .

أو يكون المعنى لتصير عاقبتهم إلى أن يجعل الله جهاد المؤمنين وإصابة الغنيمة أو الفوز بالشهادة حسرة فى قلوبهم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا** ﴾[القصص /٨] ولم يلتقطوه ليكون عدوًا وحزنا ، وإنما معناه : أنه كان عاقبة التقاطهم إياه أن صار لهم عدوًا وحزنًا[٤] .

أى هذه اللام مترتبة على الحديث ، وليست علة له ، وهذا هو الأقرب للسياق لما فيه من معنى الحرص على المؤمنين وإرادة إعلاء شأنهم ، وتثبيت قلوبهم . . .

* * *

ويجرى فى هذا الإطار الذى ينصح المؤمنين ويحكى غفلة من غفلات الضالين قوله تعالى ﴿ **يٰأيُّها الذين آمنُوا أطِيعُوا اللّهَ ورسولَهُ ولا تولّوا عنه**

---

(١) ينظر تفسير الرازى ٩/٥٦، ٥٧ .

(٢) البيان فى غريب إعراب القرآن لابن الأنبارى ١/٢٢٧ .

(٣) ينظر الكشاف ١/٧٤ ، وروح المعانى ٤/١٠١ ، والتحرير والتنوير ٤/١٤٢ .

(٤) البيان فى غريب إعراب القرآن ١/٢٢٧ .

وأنتم تسمعونَ ولا تكونُوا كالذينَ قالوا سمعنَا وهـمْ لا يسمعونَ ﴾[الأنفال / ٢٠ - ٢١] فبعد أن أمرهم بالطاعة ونهاهم عن التولى جاء النهى مرة أخرى تركيزًا على صلة الموصول ؛ لأنه أثبت لهم السماع قبله على جهة الاختصاص ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ ونفى هذه الصفة عن هؤلاء المشبه بهم فقال ﴿ **وهم لا يسمعون** ﴾ أى سماعًا يعتبرون وينتفعون به فسماعهم وعدمه سواء ، والأداة التى نهى بها المؤمنين عن مماثلة هؤلاء اليهود أو المنافقين أو الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . . . هى التى وصف بها شأن المشبه به ﴿ **وهم لا يسمعون** ﴾ وهذا فيه من فضيحة أمرهم ما فيه . . . والسر فى اختصاص هذه الأداة (لا) دون (ما) حيث لم يقل : وهم ما سمعوا . . . أنها أوسع فى نفى المضارع من [ما] وأدل على انتفاء السماع فى المستقبل أى هم ممن لا يقبل أن يسمع[1] » .

فكما نفى عنهم السماع بلفظ يدل على دوام ذلك واستمراره ﴿ **لا يسمعون** ﴾ كذلك نهى المؤمنين عن مماثلتهم بما يدل على ذلك أيضا ﴿ **لا تكونوا . . .** ﴾ ، وهو تأكيد للثبات على الحق والمداومة على الطاعة . . . لذلك أتبعها بقوله - عز شأنه - ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ ، وهو : « استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير وتقريرًا للنهى إثر تقرير[2] . . . » .

ثم تتوالى الآيات بعد ذلك متممة هذا المراد ومؤكدة له من حكايةِ حال هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾ وأمْرِ المؤمنين بالاستجابة ، وتحذيرهم من الفتنة والخيانة ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما**

---

(١) البحر المحيط ٤/٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(٢) روح المعانى ٩/١٨٨ .

يحييكم . . . ﴾ الآيات .

والتولى والإعراض وعدم التصديق هو الوجه الذى يحذر الله عباده من أن يلتقوا فيه مع أعدائهم لأن يده كانت معهم وتدبيره وعونه هو أساس نصرهم . ويمتد هذا البيان ينصح المؤمنين ، ويثبتهم على الطاعة ، ويحذرهم من المعصية ، ويشنع على هؤلاء ويكشف أمرهم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولا تكونُوا كالذينَ خرجُوا من دِيَارِهم بَطرًا ورئاءَ الناسِ ويصدونَ عن سبيل اللَّهِ واللَّهُ بما يَعملونَ مُحيطٌ ﴾ [الأنفال /٤٧] .

هذا أيضًا تحقيق للأمر بالثبات على الطاعة والنهى عن التنازع فى الآيات قبلها ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ .

وعلى ذلك فبناء الآية على عناصر التشبيه يحقق عدة أمور منها :

١ - منع المؤمنين أن يكون الحامل لهم على ذلك الثبات والجهاد هو البطر ، والرياء ، بل أوجب عليهم أن يكون الحامل لهم على ذلك طلب عبودية الله سبحانه[١] .

٢ - الإخبار عن خروج المشركين بأنه كان فخرًا أو خيلاءً لذلك أخبر الإمام السيوطى « . . . لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل الله ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ﴾ الآية[٢] .

٣ - وفى هذا الإخبار عنهم ، ونهى المؤمنين عن مماثلتهم . . . ذم لهم

---

(١) ينظر تفسير الرازى ١٧٩/١٥ .

(٢) أسباب النزول ١٥٥/١ كتاب الجمهورية .

وتكريه للمسلمين فى أحوالهم وأفعالهم ؛ لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين ، وذلك أبلغ فى النهى ، وأكشف لقبح المنهى عنه[1] . . .

وبذلك تتجلى بلاغة بناء الكلام على ما بنى عليه من عناصر التشبيه ، وعناصر سياقه من : البطر ، والرئاء ، والصد عن سبيل الله ، والتذييل الذى ختمت به الآية . . .

فـ(بطرًا) « منصوب على المصدر فى موضع الحال » وكذلك (رئَاءَ) وهذا بيان لتلبس حالهم بهذه الخصال التى يتجلى منها : معنى الطغيان فى النعمة ، وسوء احتمالها ، وقلة القيام بها وإظهار الطاعة وإبطان المعصية[2] . . . . وصيغة الاسم تدل على تمكن ذلك منهم ، واستمراره وثباته فى قلوبهم أما الصد عن سبيل الله فكان يتجدد ويتغاير كلما دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولذلك قال ﴿ **ويصدون** ﴾ بصيغة المضارع ، ثم بلغ التحذير أوَجه فى جانب المؤمنين ، والتهديد والوعيد غايته فى جانب الكافرين حين قال سبحانه ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ .

ومن ثم كانت صياغة الآية على ذلك أبلغ من أن يقال : ولا تخرجوا بطرًا ورئاء الناس ، لأنها تحذر المؤمنين وترشدهم . . . وتكشف لهم نفوس هؤلاء الصادين عن سبيل الله المرائيين فى أحوالهم وأفعالهم ، وهذا النهى لا يتجلى بصورته تلك فى عناصر السياق : (اثبتوا - واذكروا - وأطيعوا - ولا تنازعوا - واصبروا . . .) بقدْرِ ما جاء فى صورة التشبيه التى تعدل حكاية قوم مخذولين عند قوم منصورين . . . وهذا فيه من اللوم عليهم والتشنيع بهم ما فيه . . .

* * *

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٣٢/١٠ .

(٢) ينظر المفردات (بَطَرَ) وكذا لسان العرب ، وتفسير الرازى ١٧٨/١٥ .

وكذلك لما أراد الحق سبحانه أن يؤدب عباده على الوفاء بالعهد كما أمرهم ضرب لهم المثل - حين لا يفعلون - بالتى نقضت غزلها بعد قوة إحكام ، إذن لو نقضوا العهد بعد إحكامه وبعد أن جعلوا الله عليهم كفيلا ، فستكون حالتهم كحالتها ، ليس فى النقض بعد الإبرام فحسب ، بل في الخرق والوره وسفاهة العقل أيضا . . .

قال تعالى ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّم وَلَاتَنقُضُوا الأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوكِيدِهَا وقَدْ جَعَلتمُ اللَّهَ عليكمْ كفيلًا إن اللَّهَ يعلمُ ما تفعلونَ ، ولا تكونُوا كالتى نَقَضتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوةٍ أَنكَٰثًا تتخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُم أَنْ تكونَ أمةٌ هى أَرْبَىٰ من أمةٍ إنما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بهِ ولَيُبَيِّنَنَّ لكم يومَ القيامَةِ ما كُنتمُ فيهِ تَختَلِفُونَ** ﴾[النحل /٩١ -٩٢] .

فقوله سبحانه ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها** ﴾ نهى عن مماثلة من هذا حاله جنسًا وصفة ، وهذا النهى يجمع بين الصفة ومقتضاها الذى جلته الآية بقوله سبحانه ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلا بينكم** ﴾ .

والتمثيل فى ذلك قائم على النهى عن تشبيه حالة بحالة ، وقد برزت عناصره التى بنى عليها الكلام فى سياق الأمر والنهى (وأوفوا - ولا تنقضوا) وقوة الميثاق التى صاحبت حالتهم « وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » والكفالة أقوى من الرقابة والضمان ، لذا قال أبو هلال العسكرى فى معناها :

« التزام نفس المكفول به ، ومنه كفلت الغلام إذا ضممته إليك لتعوله[1] . . . » والمعنى على ذلك : ملكتم نفسكم وعهدكم لله حين عاهدتم . . . وكذلك ختمت الآية بهذا التهديد الخفى الذى يناسب خوالج النفوس ووساوسها قبل القيام به ﴿ **إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾ ولم يقل

---

(١) الفروق فى اللغة ٢٠١ .

ما تعملون لأن الوفاء بالعهد ألصق بحال النفس وألزم ، ولذلك جاء ضرب المثل بحالة تمس العقل .

وقصة المشبه به فى عناصر البناء تحكى (حال الناقض فى أخس أحواله تحذيرًا منه ، وبيانا أنه ليس من فعل العقلاء وصاحبه داخل فى عداد حمقى النساء[1]) .

وإذا نظرنا فى عناصر البيان : نقضت . . أنكاثًا . . . دخلا . . . إلخ وجدنا « كل جزئية من جزئيات التشبيه تشى بالتحقير ، والترذيل ، والتعجيب ، وتشوه الأمر فى النفوس ، وتقبحه فى القلوب ، وهو المقصود ، وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل التى تقضى حياتها فيما لا غناء فيه[2] » .

هذا على القول بتعيين المشبه به ، وهو تلك المرأة الحمقاء . . . وقيل : المراد بالمثل الوصف دون التعيين ؛ لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عنه إذا كان قبيحًا ، والدعاء إليه إذا كان حسنًا ، وذلك يتم به من دون التعيين ؛ إذ لا يلزم فى التشبيه أن يكون المشبه به موجودًا فى الخارج[3] .

هذا رأىٌ فى البيان ومن الأفضل إضعافه ؛ لأنه يجر إلى القول بأن فى القصص ، والأخبار ما ليس له وجود ، بل هو فرض وتخييل ، وهذه هى التى كان يذهب إليها المرحوم : طه حسين ، ومحمد أحمد خلف الله وشيعتهما . . . وتكمن دقائق هذا النهى بعد تصوير المعنى ووضوحه فى قول الله – عز ذكره – ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى**

---

(١) ينظر روح للمعانى ٢٢١/١٤ .

(٢) فى ظلال القرآن ٢١٩١/٤ .

(٣) ينظر تفسير الرازى ١١٠/٢٠ ، والفتوحات الإلهية ٥٩٥/٢ .

من أمة . . . ﴾ أى هذا يكون ذريعة إلى الغش والفساد والعداوة المستبطنة[١] ، بسبب الكثرة والزيادة فى أمة دون أخرى . . وانظر إلى التعبير بقوله (دخلا) الذى يوحى بما سبق من معان ، بالإضافة إلى ما فيه من معنى هدم الأخلاق ، وفساد الدين وتحطيم القيم الإنسانية ، ونحو ذلك يكون عاقبة نقض العهد ، وفضّ المواثيق . . . والإخلال بشهادة الله ، واتخاذ الأيمان لأغراض لا تليق ، ومن هنا تكون القوة فى النهى والزجر والتوعد لمن كان هذا شأنه ، وتبرز من تصوير المعانى فى هذا البناء . . .

أما قوله تعالى ﴿ **يٰأَيُّها الذينَ آمَنُوا لا تكُونُوا كالذينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مما قالُوا وكانَ عندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾[الأحزاب /٦٩] .

فقيل نزلت فى شأن زيد وزينب ، وما سمع فيه من قالة بعض الناس[٢] . . .

والسورة الكريمة تتلاحق أغراضها ، وتتكامل قضاياها ، وقد تحدثت عن قضية التبنى ، ولعنت الذين يؤذون الله ورسوله ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا . . .** ﴾ ثم جاءت هذه الآية إرشادًا وتوجيها وحثًا للمؤمنين على ألّا يفعلوا مع نبيهم مثل ما فعل قوم موسى معه . . . فلها علاقة وطيدة بما سبق من وعيد الذين يؤذون رسول الله ، ولكنها نصت هنا على بنى إسرائيل ، وجعلتهم مثلا فى ذلك لكثرة أنواع الإيذاء التى كانت تصدر منهم لنبيهم بتكذيبه واتهامه بما لا يليق بمقام النبوة . . .

وقيل فى هذا الإيذاء كلاما كثيرًا منه : أنهم اتهموه بعيب فى بدنه ،

---

(١) ينظر المفردات (دخل) .

(٢) ينظر الكشاف ٢٧٦/٣ ، وروح المعانى ٩٤/٢٢ .

وقيل : قالوا : إنه آدر وكان حييًّا ستيرًا ؛ واتهموا بقتل هارون[١] . . . فبرأه الله مما قالوا ، وعاد السياق بعد ذلك لإرشاد المؤمنين إلى القول السديد الذى يكون كفيلا بصلاح الأعمال وغفران الذنوب . . . والفوز العظيم ، وجاء بين ذلك الحديث عن بنى إسرائيل مجملا تقبيحا لصورة الذين يؤذون رسول الله والمؤمنين والمؤمنات ، ونهيا لهم عن مماثلة الذين كانوا يؤذون نبيهم . . . وكأن هذه الآية إجمال بعد تفصيل لصورة الذين يصدر منهم الإيذاء والتنكيل بمن هذا شأنه . . .

ويقول العلامة ابن عاشور فى تفسيره « وفائدة التشبيه : تشويه الحالة المشبهة لأن المؤمنين قد تقرر فى نفوسهم قبح ما أوذى به موسى - عليه السلام - بما سبق من القرآن كقوله ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾[الصف /٥] ثم قال « واعلم أن محل التشبيه هو قوله ﴿ **فبرأه الله مما قالوا** ﴾ وإنما ذلك إدماج وانتهاز للمقام بذكر براءة موسى مما قالوا ، ولا اتصال له بوجه التشبيه ؛ لأن نبينا - صلى الله عليه وسلم - لم يؤذ إيذاء يقتضى ظهور براءته مما أوذى به[٢] » .

وهذا فهم سديد لأنه يربط الآية بسياقها ، ويوضح صورة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، وقد سبقت بحديث الإفك ، وقضية التبنى . . . ونحو ذلك مما تكلموا فيه وروّجوه بالكذب والبهتان ، وكانت نصحًا وتوجيها للمؤمنين بعد وعد ووعيد باللعنة لمن صدر منهم الإيذاء ، ولكنها جلت هذا النصح والتحذير . . . فى صورة دقيقة موجزة تطوى قصة بنى إسرائيل وإيذاء نبيهم ، وتقبح صورة من كان هذا

---

(١) السابق ذاته .

(٢) التحرير والتنوير ١١٩/٢٢ - ١٢٠ .

شأنه ، وتجعلها ماثلة لكل ذى لب ، وتبين أن الله هو الذى يظهر براءة أنبيائه وأصفيائه ويجلى وجاهتهم ومنزلتهم عنده .

وكما نهاهم الحق - سبحانه - عن مماثلة بنى إسرائيل فى إيذاء نبيهم كذلك نهاهم عن مماثلتهم فى قسوة قلوبهم ، ولكن فى صورة أشد زجرًا وتأنيبا . . .

قال تعالى ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد /١٦] .

هذا الاستفهام الذى يفيد الاستبطاء ، وينكر عليهم تأخر أوان خشوعهم . . . امتداد يوضح ويقرر خيوطًا نسجت عليها السورة تحث المؤمنين على الامتثال لأمر الله حين دعاهم إلى الإيمان ، والإنفاق ، وعاتبهم على ذلك ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم** ﴾ ... ﴿ **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله** . . . ﴾ ثم يتدرج هذا العتاب حتى يصل إلى مرحلة التحذير من مماثلة أهل الكتاب ، تلك التى ترتب عليها : فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم . . .

فمما ثلتهم لأهل الكتاب فى البعد عن الحق يترتب عليها ما أصابهم من قسوة القلوب التى أدت إلى الفسق والخروج عن الدين . . .

ومراد التشبيه أو بناء المعنى عليه : ذمُّ المشبه به ، والتشنيع بشأنه ، وذلك أبلغ فى التحذير من أن يبنى الكلام على غير عناصر التشبيه ، وصورته ؛ لأن السياق تلاقت فيه الصورة مع المعنى القائم فى الاستفهام والنفى على أن (لا) نافية وما بعدها منصوب معطوف على تخشع ، (والنهى على أنها ناهية وما بعدها مجزوم بها ، ويكون ذلك انتقالًا إلى نهى أولئك المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب بعد أن وبخوا وعوتبوا[1] . . .) .

---

(١) ينظر الكشاف ٦٤/٤ ، وتفسير الرازى ٢٣٠/٢٩ ، وروح المعانى ١٨١/٢٧ .

ويجرى كذلك على هذه الشاكلة من التحذير قوله تعالى ﴿ **ولا تكُونُوا كالذينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أولئكَ هُمُ الفٰسِقُونَ** ﴾[الحشر /١٩]

فبعد أن أمرهم بالتقوى والنظر فيما تقدمه النفوس ليوم القيامة ، حذرهم من التغافل ، وزاده بيانًا بأن صوره فى صورة قوم تحققت فيهم صلة الموصول ، فعاقبهم بما يشاكل صنيعهم ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ وهذا كما قال الراغب « . . . تنبيه على أن الإنسان بمعرفته بنفسه يعرف الله تعالى ؛ فنسيانه لله من نسيانه لنفسه[١] » .

وبنى الكلام على تلك الصورة تنكيلا بهؤلاء الذين نسوا حق الله تعالى ، ومبالغة فى التحذير من مماثلتهم ، وتقوية للأمر بالتقوى السابق . . .

ولاريب أن هذا البناء على عناصر التشبيه أبلغ فى صورة التحذير والتوجيه من النهى وحده كأن يقال : ولا تنسوا الله . . . كما قال : واتقوا الله ، وقوة تأثير العبارة فى النفس هو مناط التفرقة بين العبارتين ، قال الإمام عبد القاهر « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها[٢] » .

* * *

دخلت كاف التشبيه فى كل ما سبق على اسم الموصول لأنها كانت تحذيرًا من مماثلتهم فى صفة محققة فيهم ، وتكاد تكون معلومة للمخاطبين ؛ لأن القرآن قصّ كثيرًا من أخبارهم قبل ذلك ، فمعلوم للمخاطبين أن هؤلاء تفرقوا واختلفوا ، وتحقق فيهم سوء الاعتقاد والبطر ونسيان الحق ، ونقض العهد وإيذاء الأنبياء . . . إلخ ومن ثم عبر باسم الموصول ، وقصد ذلك

---

(١) المفردات (نسى) .

(٢) دلائل الإعجاز ٢٥٨ .

تشنيعًا عليهم ونشرًا لأخبارهم ليكون التحذير منها كأبلغ ما يكون ، وحتى لا يتمثل بها من كان يرجو الله واليوم الآخر . . لذلك قال الإمام عبد القاهر فى بيان شأنها « تفسير هذا أنك لا تصل الذى » إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها وأمر قد عرفه له[١] . . . »

وهاك شاهد واحد من هذا الأسلوب الذى نبحث خصائصه دخلت فيه الكاف على كلمة (صاحب) ، تلك التى تؤدى معنى الملازمة والانقياد وطول اللبث[٢] ، ويتجلى ذلك فى قول الله تعالى مخاطبا رسوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ **فاصْبِرْ لحُكْمِ ربكَ وَلَا تكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نَادَىَ وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ [القلم /٤٨] .

ولا يخفى أن صاحب الحوت هو سيدنا يونس - عليه السلام - وسمى بذلك لمصاحبته له إلى أن ذكر الله ودعاه ولذلك قال الحق سبحانه ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ .

والنهى هنا مقيد بحالة معينة ومسلط عليها فى معناه « إذ نادى وهو مكظوم » ، « وليس النهى منصبا على الذوات ، إنما المعنى : لا يكن حالك مثل حاله إذ نادى ، فالعامل فى (إذ) هو المحذوف المضاف أى كحال[٣] . . . »

وفى هذا تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر بالصبر دون تجرع الغيظ وحبسه ، قال ابن منظور : والأصل فى الكظم : الإمساك على غيظ وغم[٤] » ، ومجئ النهى عن ذلك على تلك الصورة أبلغ من النهى

---

(١) السابق ص ٢٠٠ .

(٢) ينظر المفردات (صحب) .

(٣) البحر المحيط ٣١٧/٨ .

(٤) لسان العرب (كظم) .

المباشر ؛ لأن فيه تبجيلا وتوقيرًا لرسول الله ، ولكنه جاء على ذلك توضيحًا لصورته وتجلية لعاقبته . .

ومن خصائص البناء نلحظ أنه عبر بـ(صاحب) دون (ذى) لأنه فى مقام النهى عن مماثلة حاله هذا . . . ولأن الأول يأتى فى مقام المدح نحو : أصحاب الجنة ، وأصحاب الصراط السوى ، ونحو ذلك ، وفى مقام الذم نحو : أصحاب النار ، وأصحاب الفيل ، ومنها « كصاحب الحوت » ، أما (ذو) فتأتى فى مقام تعظيم المضاف إليه كقوله تعالى ﴿ **ولكن الله ذو فضل . . .** ﴾ ﴿ **والقرآن ذى الذكر . . .** ﴾ ونحو ذلك .

وعلى ذلك يتحقق فيها ما كتبه الألوسى « . . . (ذى) أبلغ من (صاحب) قال ابن حجر : لاقتضائها تعظيم المضاف إليها ، والموصوف بها بخلافه ، ومن ثم قال سبحانه فى معرض مدح يونس - عليه السلام - « وذا النون ، والنهى عن اتباعه : ولا تكن كصاحب الحوت[1] . . . »

* * *

دخلت الكاف على المصدر فى شاهدين يتصلان بتوقير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتعظيمه ، والمصدر يقتضى الثبات والمداومة دون التجدد أو المغايرة ، ويتجلى المراد من خلال البيان :

الأول : قوله تعالى : ﴿ **لا تجْعَلُوا دَعَاءَ الرَّسُولِ بينكُم كدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الذينَ يَتَسَللُونَ منكمْ لِوَاذًا فليَحْذَرِ الذينَ يُخَالِفُونَ عن أمرِهِ أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أو يُصِيبَهُمْ عذابٌ أليمٌ** ﴾[النور /٦٣] .

لفظ الدعاء هنا يحتمل وجهين ومن بيانهما يتضح مراد النهى :

---

(١) روح المعانى ٢٩/٤٥ .

الأول منهما : النداء ، أى لا تجعلوا نداء الرسول لكم ودعوته إياكم كدعوة بعضكم بعضا فى التقاعس عن إجابته ، فدعوته لكم إلزام .

وعلى ذلك يكون وجه الشبه المنفى بين الدعوتين هو الخيار فى الإجابة ، والدعاء على ذلك مصدر دعاه إذا ناداه أو أرسل إليه ليحضره ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، أى لا تقيسوا دعاءه لكم على دعاء بعضكم بعضا[1] . . .

ويكون المقصود من ذلك احترام دعوته وعدم الخروج بغير إذنه ما داموا فى مجلسه ، وبذلك تقرر الآية مضمون ما قبلها ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستئذنوه . . .** ﴾ ويكون قوله ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسللون . . .** ﴾ داخلًا فى سياق التشبيه .

الثانى : أن يكون المراد بالدعاء هنا التسمية ، أى لاتنادوه باسمه المسمى به كما يفعل بعضكم مع بعض ، وعليه فوجه الشبه المنفى هو عدم التوقير والهيبة ، ويكون على ذلك من إضافة المصدر إلى مفعوله أى دعاءكم الرسول بمعنى أنكم لا تنادوه باسمه فتقولوا : يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه بالتوقير ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، وعلى هذا جماعة كثيرة[2] .

منهم : الراغب الأصفهانى حيث ذكر أن المراد بالدعاء هنا :

التسمية ، وعلله بقوله « حثا على تعظيمه وذلك مخاطبة من كان يقول :

---

(١) ينظر الفتوحات الإلهية ٣/٢٤٢ .

(٢) ينظر السابق ذاته .

يا محمد[١] » والسيوطى حيث ذكر فى باب معرفة الوجوه والنظائر أن المراد بالدعاء هنا : التسمية ، وذكر أيضًا فى أسباب النزول : أنهم كانوا يقولون يا محمد ، يا أبا القاسم ، فأنزل الله : ﴿ **لاتجعلوا . . .** ﴾ الآية فقالوا : يا نبى الله يا رسول الله[٢] . . .

وأرى أن الآية تحتمل الوجهين ، وكل واحد منهما أرجح من الآخر ، لأنها جاءت فى سياق تعليم الآداب العامة ومنها استئذان رسول الله واحترام دعوته ومجلسه ، وكذلك تعظيمه حين ندائه . . . ولكن الوجه الأول يترابط مع السياق ويتصل به فهو أقرب إن كان لابد من الترجيح .

والشاهد الثانى : قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فوقَ صوتِ النبىّ ولا تجهَرُوا لَهُ بالقولِ كجهرِ بعضِكُمْ لبعضٍ أن تحبَطَ أعمالُكُمْ وأنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾[الحجرات /٢] .

قال أبو حيان : نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت ، لا ترفعوا أصواتكم إذا نطق ونطقتم ، ولا تجهروا له بالقول إذا كلمتموه لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجل ، ولا يكون الكلام مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - كالكلام مع غيره ، ولما نزلت قال أبو بكر - رضى الله عنه - لا أكلمك يا رسول الله إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله[٣] . . . »

هذا أفضل ما قرأته فى سبب نزولها . . . لأنه يتسق مع نظمها وسياقها من تعليم للأدب واستشعار لهيبة النبوة . . .

---

(١) المفردات (دعا) .

(٢) الإتقان ١٨٧/١ طبعة الحلبى وينظر أسباب النزول٢٣٧/٢ كتاب الجمهورية .

(٣) البحر المحيط ١٠٥/٨، ١٠٦ .

فبعد أن نهاهم عن رفع صوتهم فوق صوته زاده بيانا بالنهى عن مخاطبته أو ندائه بمثل ما يخاطب بعضهم بعضا ، فلابد أن تكون له خصوصية ، وهذا شأن أولى الهيبة والوقار . . . .

وقال (كجهر) إشارة إلى أن هذا الجهر الكائن بينهم حين يتخاطبون لا ينبغى أن يكون عند خطاب رسول الله أو ندائه . . . لأن هذا أمر يقدره الله وبه تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . . . .

وليس النهى عن مطلق الجهر ، وإنما عن جهر يماثل جهر بعضهم لبعض ، وهذه خصوصية فى بناء المعنى على صورة التشبيه ، بينها الزمخشرى بقوله « . . . وكان التشبيه فى محل النصب أى لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضكم لبعض ، وفى هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبها[1] » .

فالغرض حينئذ من بناء المعنى على الصورة هو إبراز جلالة النبوة وتعليم الأدب الجمّ فى حضرتها حوارًا ونداءً . . . وهذ خيط من الخيوط التى استهلت بها السورة .

* * *

هذا وقد جاءت كل شواهد النهى هنا فى سياق توجيه المؤمنين وإرشادهم ، ومن خلال دراستها تجلت خصائص البيان فيها . . .

ويبقى من هذا المبحث ما جاء النفى فيه بهمزة الاستفهام ، ولسياقها أيضا

---

(١) الكشاف ٣/٥٥٥ .

خصائص لا يجليها إلا النظر الفاحص لأنها تحمل فوق معنى النفى أمورًا أخرى كالتوبيخ والحض على الإيمان وتقريره فى النفوس وتعظيم حال من اتبع سبيله . . . ، وشواهده يجوز أن يكون المراد بها نفى التشابه ، ويصح فيها نفى التشبيه لغرض ما ، يتجلى من الكلام . . .

وجعل الخطيب التشابه فيها دون التشبيه من باب الاستحسان وليس الوجوب أو الإلزام فقال « فإن أريد مجرد الجمع بين شيئين فى أمرٍ فالأحسن ترك التشبيه إلى الحكم بالتشابه[1] . . . »

وهذا يرجع إلى قصد المتكلم كما قال المغربى « وإنما لم يجب لأن المتكلم قد يكون أحد الطرفين عنده أهم ، إما لكونه أول خاطر لمحبته فيه أو لكونه هو المخبر عنه فيقدم لكونه يجب أن يكون مبتدأ حينئذ فيخبر عنه بكونه كالآخر[2] » . ويجرى عندنا هذا فى طريق النفى ، وأداته همزة الإنكار ويتبين هذا من السياق » فإذا كان الواضح من قول الله تعالى ﴿ **أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ من اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصِيرُ * هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ واللَّهُ بصيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [آل عمران /١٦٢ -١٦٣] . نفى المساواة بين من اتبع رضوان الله ومن استحق عقابه فباء بسخطه ، فإنه لايمنع أن يكون هذا نفى تشبيه الأعلى بالأدنى ، وجاء بطريق الإنكار زجرًا وتوبيخا ، وحثًا على اتباع رضوان الله . . . ، وقدمه وحقه أن يكون مشبها به لبيان منزلته ، ولأن الحديث من قبل يستدعى ذلك ، فقد تقدم بيان شأنهم من الإرشاد والتحذير وبيان الابتلاء . . . وهكذا ، ثم تجلى هنا الفرق بين درجة من اتبع رضوان الله ومن باء بسخطه فى صورة هذا الإنكار البالغ دفعا لتوهم أن هناك مساواة بين هذا وذاك ،

---

(١) بغية الإيضاح ٤٧/٣ .

(٢) مواهب الفتاح ٤١٥/٣ ضمن الشروح .

وعلى ذلك يصح إنكار التساوى ، ويكون المراد نفى التشابه ، ويصح أن يكون المراد نفى أن يشبه المؤمن بالكافر ، وقدم الأعلى لبيان منزلته ، وأنها لا تتدنى أبدًا إلى منزلة تغضب الله سبحانه . . . وقرينة ذلك التوجيهات السابقة . . .

ومجيئ النفى بالهمزة هنا ، له دلالة لا تتجلى فى النفى الصريح ، لأن الصريح لا يعدو أن يكون إخبارًا - كما سبق - مع ما يحمله السياق من دلالات . . . ولكنه لا يتجلى فيه معنى الإنكار أو التوبيخ والتقريع . . . وغير ذلك من المعانى التى يحملها الاستفهام ، فالنفى عن طريقه فيه الحط من منزلة الضالين الجاحدين ومنزلة من اتبعهم . . . وفيه فوق ذلك ارتفاع شأن المؤمنين ، وقوله سبحانه عقب ذلك « هم درجات عند الله » فيه خصوصية أخرى تبين منازل المؤمنين ، ولاسيما منزلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هنا ، لأنه قال قبل الآية ﴿ **وما كان لنبى أن يغل** . . . ﴾ أى منزلته أعلى من أن يكون كذلك . . . .

ونرى مثل هذا البيان فى قوله تعالى ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّما أُنزِلَ إليكَ من رَّبِكَ الحقُّ كمنْ هَو أَعْمَىٰ إنما يتذكَّرُ أوْلوا الأَلْبابِ** ﴾[الرعد /١٩]

بعد أن ضرب الله - عز وجل - المثل بالحق والباطل بنفى المساواة بين الأعمى والبصير والظلمات والنور ، وإنكار أن يكون له شريك ، وبين ما يذهب جفاء وما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، وبين مصير الذين استجابوا والذين لم يستجبوا . . . بعد ذلك أنكر أن يكون هناك تشابه بين من علم الحق فأذعن له ، وبين من انطمس نوره عن معرفة الحق فصار كالأعمى ، وبيّن أن بُعد ما بينهما « كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز[1] » .

فنفى التشابه وإنكاره فى الآية جائز بقرينة نفى المساواة بين الأعمى ،

---

(١) الكشاف ٢/٣٥٧ .

والبصير . . . إلخ فى السياق قبلها ، وذلك أن الذى يقابل قوله ﴿ **أفمن يعلم . . .** ﴾ قوله ﴿ **كمن هو أعمى** ﴾ والعمى وحده هو الذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تخفى إلا على أعمى[١] .

فمصب الإنكار إذن على المساواة بين هذا وذاك والتعريض بمن يساوى بينهما وعدّه من غير أولى الألباب . . . ويمكن أن يجرى فيها نفى التشبيه لأمرٍ مّا ، وهو بيان شأن صاحب المنزلة الرفيعة ، وإنكار أن تشبه حاله وقد استجاب للحق وعلمه بحال من كان مأواه جهنم .

وقس على ذلك قوله تعالى ﴿ **أَفَمَن وَعَدْنٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُو لٰقِيهِ كمن مَّتَّعْنٰهُ مَتَعَ الحَيوٰة الدنيا ثم هو يومَ القيٰمَةِ منِ المُحْضَرِينَ** ﴾ [القصص /٦١] .

نفى أنٍ يسوىٰ بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا بعد أن بيّن أن ما عند الله خير وأبقى[٢] . . .

ويمكن أن تجرى الآية على نفى التشبيه لبقاء عمل الأول وارتفاعه على عمل صاحب الدنيا ، ولما كان أرجح منه وأعلى أنكر أن يشبه به .

وقوله تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمَنُوا وَعَملوُا الصَّلِحٰتِ كالمفْسِدِينَ فى الأرضِ أم نجْعَلُ المتقينَ كالفُّجارِ** ﴾ [سورة ص /٢٨] .

فـ(أم) هنا منقطعة ، والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الفريقين[٣] ، ويمكن أن يجرى فيها نفى التشبيه وإنكاره لأمر نعتبره ، وهو أن حال العاصى لا يرقى إلى حال المؤمن أبدًا مادام على عصيانه ، وكذلك حال المؤمن

---

(١) ينظر : فى ظلال القرآن ٤/٢٠٥٦ .

(٢) ينظر الكشاف ٣/١٨٧ .

(٣) ينظر السابق ٣/٣٧٢ والفتوحات الإلهية ٣/٥٧٢ .

لا يتدنى إليه مادام على إيمانه(*) .

وقدم المؤمن فى كل هذه الشواهد لبيان علو منزلته ، وأخر العاصى لأن الصفات المنكرة منصبة عليه ومتأصلة فيه . . .

* * *

والتشابه فى مثل ما سبق ، وإن كان راجحًا بقرائن يوحى بها المعنى والسياق فهناك شواهد يترجح فيها بقرائن لفظيه ، وذلك بالنص على نفى التساوى كقوله تعالى ﴿ **أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كمن ءَامَنَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ وجَٰهَدَ فى سبيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عندَ اللَّهِ واللَّهُ لا يهدِى القومَ الظالمينَ** ﴾[التوبة /١٩]

فقوله سبحانه ﴿ **لا يستوون عند الله** ﴾ قرينة دالة على أن المراد نفى التساوى بينهم ، وأن الذى يسوى بينهم يدخل فى عداد الظالمين الذين حجبت عنهم الهداية .

وجمع الزمخشرى فى بيانه بين إنكار التشبيه وإنكار التسوية فقال : « والمعنى : إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، وأن يسوى بينهم ، وجعلْ تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر(١) » .

والهمزة لإنكار هذا الجعل الذى زعموا به المساواة بين هذا وذاك ويؤكده قوله « لا يستوون عند الله » ، كما أنها لإنكار الحسبان فى قوله تعالى ﴿ **أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نَّجْعَلَهُمْ كالَّذِينَ ءامَنوا وعملوا الصَّٰلِحَٰتِ سَواءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ ما يحكمُونَ** ﴾[الجاثية :٢١] .

فهو أيضا إنكار أن يسوى بينهم فى المنزلة فى الحياة وفى الممات ، ومن

(*) ومن ذلك الآية ١٤ - ١٥ من سورة محمد والآية ٣٥ من سورة القلم .

(١) الكشاف ١٨٠/٢ .

حكم بالمساواة بينهما فحكمه سيئ وجائر .

فالإنكار فى الشاهدين منصب على هذا الزعم أولًا ثم يمتد معناه بعدئذ لنفى المساواة بين الطرفين ، ولما كان الإنكار مسلطا على هذا الزعم ، وليس متصلا اتصالًا مباشرًا بالطرف الأول ، قدم الأدنى من الطرفين لأن هذا مجعولهم وحسبانهم ، ولو قدم الأعلى ههنا لاختل السياق والمراد على خلاف ما رأيناه فى الشواهد السابقة التى باشر الإنكار فيها التشبيه ومنها قوله سبحانه ﴿ **أفمن كان مُؤمنًا كَمَنَ كان فَاسِقًا لَايَسْتَوُونَ** ﴾ [السجدة /١٨] . فالأصل فيها إنكار التساوى ، ويصح فيها نفى تشبيه الأعلى بالأدنى ، ومراده ذم الفاسق والحط من شأنه . . . وجعله أصلا فى الصفة المنكرة . . . .

* * *

وبقى من هذا الباب شاهد واحد أدرجه البلاغيون فى باب التشبيه المقلوب ، وهو قوله تعالى ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾[النحل /١٧] .

عده جمهور البلاغيين من التشبيه المقلوب تنديدًا وتوبيخًا بعبدة الأصنام فبينوا أن « مقتضى الظاهر أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؛ لأن سوق الكلام لإلزام عبدة الأصنام حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فعدل عنه لزيادة التقريع ، وبيان أنهم بلغوا فى غوايتهم إلى حد جعلوا الأصنام أقوى حالًا فى الألوهية من الله سبحانه وتعالى ، حتى جعل الأصنام مشبها بها[1] » .

معنى ذلك أن بناء الآية على هذا النسق هو الذى يؤدى إلى زيادة التقريع لهؤلاء ؛ لأنهم خالفوا الأصل البين الذى لا يغيب على عاقل ، فقد خاطبهم على حد زعمهم أى بجعل الأصنام مشبها بها . . . .

---

(١) شرح الفوائد الغياثية ٢٤ .

أما قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ [الزمر /٣] فدليل على أنهم كانوا يقرون بأن الله هو الخالق . . . إذن فلا يليق – كما قال الرازى – بعاقل اعتقاد أن الأصنام والجمادات تقربه إلى الله ، ولكن منهم من كان يعبد المسيح أو العزير ، أو الملائكة . . . أو تماثيلا لهؤلاء ، أو للأنبياء والصالحين السابقين ، على زعم أنها لا تعبد لذاتها ، وإنما لتقربهم إلى الله زلفى[1] ، ولا ريب أن هذا زعم فاسد واعتقاد مغاير لطبيعة البشرية .

أو يكون هذا قول فريق منهم ، ولا يدفع ذلك أن قوله سبحانه ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ دليل على مساواتهم غير الخالق بالخالق . . . فهم يفعلون والحق سبحانه يستنكر ذلك منهم . . .

وقد أجاد السكاكى حين قال : . . . فأحسن التأمل ترى التقديم قد أصاب شاكلة الرمى ، بعد أن قال « وعندى أن الذى تقتضيه البلاغة القرآنية هو أن يكون المراد بمن لا يخلق الحى العالم القادر من الخلق لا الأصنام ، وأن يكون الإنكار موجهًا إلى توهم تشبيه الحى العالم القادر من الخلق به تعالى وتقدس عن ذلك علوًا كبيرًا تعريضا به على أبلغ الإنكار . . . وقوله ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ تنبيه وتوبيخ على مكان التعريض[2] » .

وإذا كان تقديم ما حقه التأخير لمزيد التوبيخ والتقريع وبيان أن هذا الذى يعبد من دون الله لا شأن له ، فإن الأوجه أن تكون الآية على أصلها وظاهرها دون قلب التشبيه ، وتدخل فى باب نفى التشابه أو التساوى ، وتكون ردًا على زعمهم ودحضا لافترائهم ومبالغة فى الإنكار عليهم . . . . وهذه المماثلة التى أرادوها هى لب الإنكار الذى أفادته الهمزة ، وأفادت أيضا

---

(١) ينظر تفسير الرازى ٢٤١/٢٥ .

(٢) المفتاح ١٩٠ .

تعظيم الخالق جل شأنه ، وصفة الخلق التى عبر بها هنا من أعظم الأدلة على قدرته وعظمته . . .

* * *

ومن هذا البيان يتجلى ما سبقت الإشارة إليه من أن الأوْلى بدراسة التشبيه المسبوق بنفى أو نهى هو علم المعانى لأنه هو الأحرى بتجلية المعانى التى أفرغت فى قالب تلك الصورة ومصب الكلام إذن على النفى أو النهى ، وبناء الكلام على عناصر التشبيه له دلالة جلاها سياقه . . .

وكان المقصد من تلك الدراسة أيضا هو بيان خصائص هذا الأسلوب الذى قلّ استشهاد البلاغيين به ، وقلت وقفاتهم عنده ، وانصرفوا عن دراسة سماته . . . .

كما لوحظ أن المقدم فى طرفى بنائه هو الأعلى سواء فى ذلك النفى أو النهى ، ويستثنى من ذلك ما دخلت فيه همزة الإنكار على شىء قبل التشبيه ، وكان ذلك فى شاهدين فحسب كما سبق وهما قوله تعالى ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج . . .** ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . .** ﴾ وقد سبق بيانه .

والله ولى التوفيق .

* * *

من أهم مصادر هذه الدراسة

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط٤ -١٩٧٨ - الحلبى .
٢ - أسباب النزول - الواحدى ، السيوطى
٣ - الإكسير فى علم التفسير للطوفى تحقيق د / عبد القادر حسين
٤ - البحر المحيط لأبى حيان ط٢ ١٩٨٣م دار الفكر .
٥ - البيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات بن الأنبارى ت د / طه عبد الحميد طه .
٦ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح - الشيخ / عبد المتعال الصعيدى .
٧ - التفسير الكبير - فخر الدين الرازى دار الفكر
٨ - التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان - الطيبى ت د / هادى عطية ط١ ١٩٨٧م
٩ - تفسير التحرير والتنوير - العلامة محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية .
١٠ - جواهر البلاغة للهاشمى ط١٢ دار إحياء التراث - بيروت .
١١ - دلائل الإعجاز ت الأستاذ / محمد شاكر - الخانجى بالقاهرة .
١٢ - ديوان طرفة - المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان .
١٣ - ديوان النابغة الذبيانى ت / محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف .
١٤ - ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى ، ضبطه - مصطفى السقا . ط الحلبى١٩٧١م .
١٥ - ديوان شعر ذى الرمة - كارليل هنرى هيس - عالم الكتب .
١٦ - روح المعانى - للألوسى - دار الفكر .

١٧ - شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك .
١٨ - شرح ابن عقيل ت / محمد محى الدين عبد الحميد .
١٩ - شرح الفوائد الغياثية طاشكيرى زادة .
٢٠ - شروح التلخيص - دار السرور بيروت .
٢١ - الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ط /٥ -١٩٨٣ - دار الأفاق بيروت .
٢٢ - فى ظلال القرآن - دار الشروق .
٢٣ - الفتوحات الإلهية . . . الجمل - ط الحلبى .
٢٤ - الكتاب لسيبويه ت / عبد السلام هارون - دار الكتب العلمية بيروت .
٢٥ - الكشاف وهوامشه - دار المعرفة بيروت لبنان .
٢٦ - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها - مكى بن أبى طالب القيسى . . .
٢٧ - لسان العرب دار المعارف .
٢٨ - مفتاح العلوم للساكى ط٢ / ١٩٩٠ - الحلبى .
٢٩ - مغى اللبيب لابن هشام - تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد - صبيح .
٣٠ - المفردات للراغب الأصفهانى .
٣١ - المثل السائر . . . لابن الأثير ت / أحمد الحوفى - بدوى طبانه .
٣٢ - النبأ العظيم . . . العلامة د / محمد عبد الله دراز - دار القلم بالكويت .
٣٣ - نظرات فى البيان د / محمد عبد الرحمن الكردى - مطبعة السعادة ١٩٨٠م .

* * *